

بسم الله الرحمن الرحيم
المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
سورة آل عمران (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بعدما أطلعه على جلية الأمر: **{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ}** [سورة آل عمران] أي: نقصه عليك، **{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}** [سورة آل عمران] أي: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

روى ابن جرير عن عكرمة قال: ثم خرجت بها -يعني أم مريم بمريم- تحملها في خرقة إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى -عليهما السلام- قال: وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلي بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا -وكان عمران يؤمهم في الصلاة- وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إلي فإن خالتي تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، ففرعهم زكريا فكفلها.

وقد ذكر عكرمة أيضاً والسدي وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض: أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم، فأیهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، ويقال: إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبیهم صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الأثر الذي ذكره عن عكرمة وفيه: أنها جاءت بها تحملها في خرقة، أو في خرقة إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى -عليهما السلام- إلى آخره، إذا كان المراد بذلك أنهم ينتسبون إلى هارون بحيث يكون جداً بعيداً لهم فهذا يمكن أن يكون، وأما إذا كان المراد ببني الكاهن بن هارون، أنهم أبناء هذا الرجل مباشرة وجدّهم هارون فهذا فيه نظر؛ لأن بين موسى -صلى الله عليه وسلم- وهارون وبين عيسى -عليه الصلاة والسلام- مدة طويلة من الزمن كما هو معروف، ولذلك لما جاء المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- من نجران، وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شبهة وجهها إليه النصارى في نجران، قالوا: كيف يقول القرآن: **{يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ}** [سورة مريم] وبين هارون وبين عيسى -عليه الصلاة

والسلام- أو مريم مدة طويلة في التاريخ، فأجابه النبي -صلى الله عليه وسلم-: بأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، أي أن هذا رجل آخر اسمه هارون، وليس هو هارون بن عمران.
ومن أهل العلم من يقول: إن قوله تعالى: **{ يَا أُخْتَ هَارُونَ }** أي: يا نظيرته في الصلاح والتقى والعفاف والطهر والنزاهة.

لكن ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بل هو الأحق، بل هو الواجب أن يتبع في تفسير الآية، أي أن هارون هذا شخص آخر.

وهذا الأثر أصلاً هو من الإسرائيليات، ومن المحتمل أن يكون هارون جداً من أجداد بني الكاهن وإن لم يكن قريباً، ويحتمل أن يكون هو مباشرة.

وقوله: **{ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ }** [٤٤] سورة آل عمران، ذكر هنا أنها الأقلام التي يكتبون بها التوراة، وبعضهم يقول: إنها القداح، يعني أنهم يقترعون على كل حال سواء بهذا أو بهذا، والمشهور الذي عليه عامة المفسرين أنهم ألقوا أقلامهم أي: الأقلام المعروفة، وليست القداح، والمشهور المتبادر من إطلاق الأقلام أنها الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، وقد جاء في بعض الآثار -وهي أيضاً من الإسرائيليات- أنهم كانوا يكتبون التوراة فجاءت امرأة عمران بمريم، فحصل بينهم هذا الاقتراع بهذه الأقلام التي كانت بأيديهم، فهذا هو قول عامة أهل العلم، بل إن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- نقل عليه الاتفاق، لكن من أهل العلم من قال بغير هذا، والله أعلم.

قوله: "فقال لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي"، يبدو أن فيها تصحيحاً؛ ذلك أن الموافق للمقام والسياق أن تكون "وهي أنثى" وليس ابنتي، ومثل هذا يتصحف بسهولة، فإن رسمه واحد، فالمقصود أن ذكر الأنثى هنا هو المناسب؛ لأنها ذكرت بعد ذلك ما يمنعها من دخول المسجد وهي أنها أنثى، لكن إذا قالت: وهي ابنتي، فلا فائدة من هذا، والله أعلم.

"{ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * } قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [٤٥-٤٧] سورة آل عمران.

هذه بشارة من الملائكة لمريم -عليها السلام- بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير، قال الله تعالى: **{ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ }** أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون، وهذا تفسير قوله: **{ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }** [٣٩] سورة آل عمران، كما ذكره الجمهور.

{ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ }: أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك".

قوله تعالى: **{ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }** جاء مفسراً بقول الله -تبارك وتعالى-: **{ إِنَّ مَثَلِ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ }** [٥٩] سورة آل عمران] فهذه هي الكلمة، هي قوله: **{ كُنْ }** حيث خلقه الله -عز وجل- بقول: **{ كُنْ }**، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً وإن قال ابن جرير -رحمه الله-: إن الكلمة المراد بها هنا هي البشارة، فهذا فيه نظر، والله أعلم.

"وسمي المسيح؛ لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى".

نعم هذا هو المشهور في سبب تسميته بذلك، وبعضهم يقول: لأنه مسح الأرض، حيث لم يكن له محل يستقر فيه، وهذا الكلام لا دليل عليه، ومنهم من يقول: لأنه كان يتمسح بالدهن الذي كان يتمسح به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهل كان الأنبياء يتمسحون بدهن معين؟، إذاً على هذا كل الأنبياء سيقال لهم المسيح، وبعضهم يقول: إنه قيل له ذلك؛ لأنه ممسوح القدم، يعني قدمه مستوية أي متميزاً على غيره ليس كحال الناس، وهذا الكلام أيضاً لا دليل عليه.

وبعضهم يقول: مسيح من متمسح بمعنى متطهر من الذنوب، أو غير ذلك مما يقال، كأن يقال: مسحه الجمال، فالمشهور الذي عليه أكثر أهل العلم أنه قيل له ذلك؛ لأنه إذا مسح صاحب عاهة برئ بإذن الله -عز وجل-. لكن بالنسبة للدجال فالدجال يقال له: المسيح؛ لأنه ممسوح العين، وهذا أظهر ما قيل في تعليقه، ومن أهل العلم من يقول: لأنه يمسح الأرض عدا مكة.

"وقوله: **{عيسى ابن مريم}** نسبة له إلى أمه حيث لا أب له".

عيسى -عليه السلام- لا يذكر في القرآن غالباً إلا بنسبته إلى أمه؛ لأنه لا أب له، فالأنبياء الآخرون يقال فيهم: يونس وصالح وهود... الخ، وأما عيسى -صلى الله عليه وسلم- فغالباً يذكر منسوباً إلى أمه؛ وفي هذا تذكير بالمعجزة، وتشريف له ولأمه التي رماها بنو إسرائيل بأبشع فرية.

"**{وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** [٤٥] سورة آل عمران] أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه".

بعضهم يقول: إن أصل الوجاهة هي القوة والمنعة، لكن الواقع أن الوجاهة أشمل من هذا، وإن كان من معانيها القوة والمنعة، وعلى كل حال فالوجيه هو الشخص المقدم الذي يكون له منزلة ومكانة وقبول وما أشبه ذلك من المعاني.

"وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين".

قوله: "لأنه كان مسيح القدمين لا أخص لهما"، المفترض أن المختصر لا يقتصر على قول واحد بهذه الطريقة، وإن كان ولا بد فإنه يورده بصيغة قيل؛ حتى لا يفهم أنه اختيار ابن كثير، أما بهذه الطريقة التي ساق بها هذا الكلام فلا يفهم منه إلا أن هذا هو ترجيح ابن كثير، وابن كثير هنا لم يرجح أصلاً، لذلك ينبغي التعليق على مثل هذه الأشياء، فيقال مثلاً: وهذا ذكره ابن كثير ولم يرجحه.

"وقوله: **{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا}** [٤٦] سورة آل عمران]: أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وحال كهولته حين يوحى الله إليه بذلك".

قوله: **{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}** المهد هو الفراش للرضيع، **{وَكَهْلًا}** الكهل: بعضهم يقول: هو ما بين الشباب والشيخوخة، وبعضهم يقسم تقسيمات أخرى، وعلى كل حال عيسى -صلى الله عليه وسلم- رُفِعَ وهو -كما يقول الكثير- ابن ثلاث وثلاثين سنة، وسواء كان ابن ثلاثين أو ثلاث وثلاثين فإن الله -عز وجل- قال:

{وَكَهْلًا} لذلك أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن من بلغ الثلاثين فقد فارق سن الشباب ودخل في الكهولة، وبعضهم يجعل الكهولة متأخرة أي من الخمسين فما فوق، والشيخوخة بعد ذلك.

فالمقصود أن أهل العلم غير متفقين على تحديد هذه الإطلاقات بحد معين، ولكن يفهم من الآية أن من بلغ الثلاثين يقال له كهل، وقد يطلق في بعض الأعراف -في عرف خاص في وقت معين أو في مكان معين- على ما بعد ذلك، أو على مرحلة من مراحل العمر المتقدمة مثل من بلغ الخمسين، وربما بعد الستين كما هو العرف في هذا العصر حيث لا يقال في هذا العصر لمن بلغ الثلاثين إنه كهل، وإنما يقال لمن تجاوز الستين. يقول: "**{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا}**" [سورة آل عمران] أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وحال كهولته حين يوحى الله إليه بذلك"، فقله: **{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}** ليس المراد أنه يدعو إلى الله في حال المهد، وإنما المقصود بذلك المعجزة كما في قوله في سورة مريم: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ}** [سورة مريم] فنطقه في هذه الحال هو المشار إليه بقوله: **{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}** وليس معنى ذلك أنه كان يكلمهم على سبيل الدوام والاستمرار، بل كانت آية ومعجزة أن أنطقه الله -تبارك وتعالى- وأما دعوتهم إلى الله وهو كهل فليس في ذلك أي غرابة؛ لكونه يتكلم ويدعو إلى توحيد الله -عز وجل- لكن كلامه في المهد هو الذي كان على سبيل المعجزة.

"روى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **{(ما تكلم مولود في صغره إلا عيسى وصاحب جريج)}**"^(١).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **{(لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر)}**"^(٢).

كونه في الحديث الأول ذكر اثنين وفي الآخر ذكر ثلاثة يحمل على أن الله -عز وجل- أطلعه وأوحى إليه، لذلك كل ما صح من الأخبار في هذا فإنه لا يعارض بعضه ببعض، وإنما يكون الله أطلع نبيه -صلى الله عليه وسلم- على بعضهم في وقت ثم أطلعه على آخرين في وقت آخر، وهكذا.

فما صح فيه الخبر صاحب جريج في القصة المعروفة لما رمته تلك المرأة بالزنا فهدموا صومعته وآذوه، فتوضأ وصلى ركعتين ثم طعن في بطن الصبي وقال: من أبوك؟ فقال: الراعي، فهذا أحد الذين تكلموا. وممن تكلموا أيضاً في المهد الصبي الذي كانت تحمله أمه فمر بهما فارس، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، وكان يرضع فترك الثدي ثم نظر إلى ذلك الشخص الفارس وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على الثدي، فمرت بجارية يضربونها ويتهمونها بالزنا وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل أو نحو ذلك، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فقال: اللهم اجعلني مثلها^(٣).

^١ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٣) (ج ١ / ص ٢٦) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ج ١ / ص ١٥).

^٢ - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب **{وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}** [١٦] سورة مريم [٣٢٥٣] (ج ٣ / ص ١٢٦٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠) (ج ٤ / ص ١٩٧٦).

^٣ - أخرجه البخاري في كتاب المظالم - باب إذا هدم حائطا فليبين مثله (٢٣٥٠) (ج ٢ / ص ٨٧٧) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠) (ج ٤ / ص ١٩٧٦).

فالحاصل أن ذلك كان جباراً، وتلك امرأة كانت طيبة وصالحة، وكانوا يتهمونها بشيء هي بريئة منه. وفي قصة أصحاب الأخدود جاءت امرأة لتلقى فيه ومعها صبي فتكأت فقال لها: يا أمّة اصبري فإنك على الحق^(٤)، وذكر غير هؤلاء ممن تكلموا في المهدي.

"**وَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ** { (٤٦) سورة آل عمران] أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح، فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله - عز وجل - قالت في مناجاتها: **{ رَبِّ اَنْتَ يَكُوْنُ لِيْ وَكَلِّمْ يَمْسَسْنِيْ بِشْرٍ }** { (٤٧) سورة آل عمران]، تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله؟! فقال لها الملك عن الله - عز وجل - في جواب هذا السؤال: **{ كَذٰلِكَ اللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ }** { (٤٧) سورة آل عمران] أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء".

في قولها: **{ رَبِّ اَنْتَ يَكُوْنُ لِيْ وَكَلِّمْ يَمْسَسْنِيْ بِشْرٍ }** هذا كما قال الله - عز وجل - في سورة مريم: **{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ اِذِ انتَبَذَتْ مِنْ اَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا }** { (١٦) سورة مريم] إلى آخر الآيات التي ذكرها الله - عز وجل - مما يفسر هذه الآية.

وذكر الله - عز وجل - أيضاً في سورة التحريم أن الملك نفخ في فرجها، قال تعالى: **{ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي اٰحْصٰنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيْهِ مِنْ رُّوحِنَا }** { (١٢) سورة التحريم].

وذكر في موضع آخر أن النفخ كان فيها كما في سورة الأنبياء **{ وَاَلَّتِي اٰحْصٰنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيْهَا مِنْ رُّوحِنَا }** { (٩١) سورة الأنبياء] فهذه الآيات تفسر هذه الآية.

"وصرح هاهنا بقوله: **{ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ }** ولم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا".

هذا من التفسير المتشابه اللفظي وهو من اللطائف في التفسير، وهو جواب لسؤال تقديره: لماذا قال هناك في قصة زكريا - عليه الصلاة والسلام - **{ كَذٰلِكَ اللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ }** { (٤٠) سورة آل عمران]، وقال هنا: **{ كَذٰلِكَ اللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ }**؟ فهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير هنا يفسر هذا، وهو معنى جيد.

"ولم يقل: [يفعل] كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: **{ اِذَا قَضٰى اَمْرًا فَاِنَّمَّا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ }** { (٤٧) سورة آل عمران] أي: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: **{ وَمَا اَمْرُنَا اِلَّا وَاٰحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِاَلْبَصْرِ }** { (٥٠) سورة القمر] أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر".

المعنى الذي ذكره ابن كثير ظاهر، وهو أنه - عز وجل - ذكر في حق عيسى - صلى الله عليه وسلم - الخلق؛ لئلا يكون هناك شبهة في أن عيسى نفخ فيه من روح الله فيقال: إنه قد حل فيه روح من الله بمعنى أنها غير مخلوقة كما يقولون: حل اللاهوت في الناسوت، فاللاهوت أي الله، والناسوت أي الناس، فالله تعالى ذكر الخلق ليدل على أنها روح مخلوقة، فعيسى مخلوق، والمخلوق لا يكون إلهاً، فهو ليس ابن الله؛ لأن الابن في الواقع جزء من أبيه، ولو كان ابناً له لكان إلهاً، فعيسى - صلى الله عليه وسلم - مخلوق من جملة من خلقهم الله - عز وجل -، فعبر بلفظ الخلق؛ لئلا يتوهم أنه ما دام قد جاء من غير أب، وجاء بنفخ روح من الله فإنه

٤ - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥) (ج ٤ / ص ٢٢٩٩).

غير مخلوق أو له جزء من الإلهية أو فيه معنى من معاني الإلهية، لا بل هو مخلوق من جملة الخلق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين..